

بناء الدولة الإسلامية : الدولة النبوية (*)

هشام جعيط

تم بناء الدولة الإسلامية، عبر ثلاث مراحل. تشكلت المرحلة الأولى مع لحظة الهجرة عندما طفت على السطح السلطة النبوية. ثم انطلقت المرحلة الثانية مع السنة الخامسة، وبعد حفر الخندق، عندما اكتسبت الدولة - تدريجياً - أبرز خصائصها، واتّسع مجالها الحيوي ليشمل كامل أرجاء الجزيرة العربية. أخيراً، وبعد وفاة الرسول وفي عهد أبي بكر، أثبتت الدولة الإسلامية أنها قادرة عبر اللجوء إلى العنف على وضع حدٍّ لأيّ انشقاقٍ أو تمرد.

ومن بين مرتكزات هذه الدولة، نشير إلى السيادة العليا للإله، والحضور الكارزمائي للنبي، وإقامة جماعة متضامنة أو أمة، ووجود تشريع أخذ طريقه للتنفيذ، وظهور منظومة شعائرية موحدة.

لكن إذا ما وضعنا هذه الدولة في إطار كامل الجزيرة العربية وتأملنا علاقاتها بالخارج، لوجدناها قد قامت على الحرب واستندت إلى تشكيل قوة تدخلٍ أصبحت في ما بعد أدواتها الحقيقية التي مكّنتها من التوسع والانتشار.

فبالإضافة إلى دستور المدينة الذي أعلن عن ولادة الأمة الإسلامية تحت

(*) فصلٌ من كتاب هشام جعيط: الفتنة الكبرى؛ الصادر بالفرنسية عام ١٩٨٩. وله مراجعةٌ في مكانٍ آخر من هذا العدد. وقد تُرجم إلى العربية مؤخراً وصدر بدار الطليعة ببيروت ١٩٩١.

رعاية الله ورسوله، شكلت العقبة الثانية - أو العهد الذي أُقيم مع مسلمي المدينة - مرسوم ولادة الدولة الإسلامية. صحيح أن الأمر يتعلق باتفاقية دفاع، يتولى بموجبها مسلمو المدينة حماية الرسول من أي اعتداء يستهدف له، لكن فكرة الحرب ونية القتال كانتا حاضرتين. تقول لنا السيرة إنَّ الله أمر رسوله بالقتال، وذلك بعد ثلاث عشرة سنة تميزت فيها الدعوة الإسلامية بالتبشير السلمي. فالهجرة خارج بلدة الكفر، والقطع مع الوسط القبلي، ترافقا مع تحول هام في التصور ذاته للنبوة التي ستقترن مستقبلاً بالسياسة والحرب. لو كان الرسول يسعى لإقامة مجتمع إسلامي مسالم مكتف بذاته، لأمكن اعتبار دستور المدينة الفعل التأسيسي لذلك. لكن الأمر كان مختلفاً، والذي حصل هو العكس تماماً، حيث تبين بسرعة أن المبادرة الدفاعية ليست إلا المسوِّغ لهذه الدولة ولتشكيل قوة ضرب بدأت بوضع ميثاق من الرجال، ثم تضخمت لتبلغ في النهاية حدود الثلاثين ألف مقاتل. كما لم يكن من الصدفة أن يعتبر عمر ابن الخطاب، فيما بعد، المشاركة في بدر بمثابة الاختبار الأساسي للتفاضل في العطاء، وهو ما لم يرد في شأنه حديث أو نص.

فعلاً، كانت بدر حدثاً محدداً. إذ حصل خلالها تحويل معاهدة الدفاع الأصلية (العقبة) إلى دولة حربية وعمل هجومي. لكن، إذا كان هناك من بين قيادات أهل المدينة من رأى في الأمر عملاً مشروعاً للرسول، وساعدوا على اقتحام العقبة، خاصة سعد بن مُعاذ، فإنَّ هذا الموقف لم يتبعه الجميع. وهو ما جعل عدد المقاتلين في بدر قليلاً - حوالي ثلاثمائة رجل - قياساً بما سيجمعه الرسول من القوات فيما بعد.

إنَّ معركة بدر، والكيفية التي أُديرَت بها العملية من أولها إلى آخرها، تثبت بشكل قاطع نية النبي في إعلان حرب مستمرة على قريش، منذ العقبة الثانية، حيث لم يكن الأمر عنده مجرد عهد دفاعي.

ومن الأكيد أن الرسول كان يسعى إلى نشر دينه وقناعاته، إلا أنه فعل ذلك باللجوء إلى استخدام القوة والحرب، وبوسائل عصره وعالمه. كما نلاحظ أن توزيع الغنائم في بدر قد أصبح عاملاً محدداً لتحريض الرجال على القتال.

أخيراً، نجد أن القوة النبوية المقاتلة في بدر قد جمعت، بالإضافة إلى المهاجرين والأنصار، عناصر من قبيلة جهينة المقيمة على مقربة من المدينة والمتحالفة مع الأنصار.

وهكذا، أدت معركة بدر إلى تعزيز سلطة الرسول في المدينة مما سمح له بشن حملته العسكرية بكل ثقة. كما أظهرته، لدى بقية العرب، في صورة المتحدي للقوة القرشية. أخيراً، مكنته من ضبط سياسته تجاه اليهود، وذلك عبر اصطفاء الإسلام وتمييزه وتحويل اليهود إلى مرمى. فكلما تجددت المواجهات العسكرية (بدر، أحد، الخندق، الحديبية) دفع اليهود ثمناً عالياً، لا باعتبارهم فقط شاهد عيان سلبياً، ولكن أيضاً بقصد دعم إعداد الذين يتبعون الرسول ويلتفون حول السلطة الجديدة التي لا تزال في مرحلة التشكل. وفي هذا السياق وقع طرد بني قينقاع، وفيما بعد طرد بني قريظة والنضير، وأخيراً فتح خيبر.

لم تكن معركة أحد أكثر من رد على بدر وثأر قريش لنفسها. أما من جهة الدولة الإسلامية، فقد كشفت الغزوة عن قدرة ممتازة على الصمود. وأصبح في مقدور الرسول أن يعبئ مزيداً من الرجال وأن يوسع من دائرة تأثيره. فبالإضافة إلى قبيلتي جهينة ومُزينة، نجح في استقطاب خزاعة، الحارسة القديمة للكعبة والتي أراحتها قريش منذ قصي لتواصل البقاء بجوار مكة. وبالرغم من أن هذه القبيلة لم تعلن إسلامها بعد - إلا على مستوى بعض الأفراد - فإنها كشفت عن تضامن فعال مع الرسول، حيث انخرطت في منظومة تحالفاته، ولعبت دوراً دبلوماسياً، وأصبحت عيناً من عيونه على ما يجري داخل مكة.

إن أهم ما ميز هذه المرحلة الانتقالية الفاصلة بين بدر والخندق، التوسع في اتجاه قبائل نجد، والعمل الدبلوماسي، وتأمين ممتلكات يهود بني النضير، والقيام بدور الموزع لغنائم الدولة.

يشكل الخندق (٥ هـ / ٦٢٦ م) منعرجاً حاسماً في مسيرة بناء الدولة. بل يمكن القول بأنه في تلك اللحظة بالذات تحولت السلطة النبوية إلى دولة معتمدة في إثبات وجودها على الحرب. فالرسول واجه تحالفاً يجمع قريش، وأحابيش كنانة وقبيلة غطفان الكبرى الممثلة بأجنحة فزارة ومُرة. وهنا يبدو الجانب

الاقتصادي في الصراع متجلياً بكل وضوح وقوة. فالغطفانيون الذين ينظرون إلى واحات المدينة، سحب الرسول منهم السلاح، عندما تنازل لهم عن ثلث منتوجها. ويتضح الأمر أكثر عندما وقع تأمين ممتلكات بني قريظة، والبدء في تقسيم الفيء بشكل دائم أو متقطع وفق مقاييس سيقع استئناؤها لإضفاء صبغة ضابطة على مستقبل الغزو العربي. وقد ساهم ذلك في إثراء ميزانية الرسول إلى درجة تسمح بالقول أنه لأول مرة تنحو فيها الدولة الإسلامية لتصبح أقرب إلى دولة غنائم، خاضعة لأعراف الحرب في الجزيرة العربية، ولكن مع إرادة وانضباط نادرين في تقاليد الحروب القبلية. وقد بلغ ذلك أوجه في المواجهة الباردة والعقلانية التي ذهب ضحيتها بنو قريظة، حيث تمت تصفية كل الرجال واسترقاق النساء والأطفال. وهي ممارسة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجزيرة العربية، وإنما هي مستمدة من ممارسات الشرق القديم. وبتنفيذها تكون السلطة النبوية قد دشنت مرحلة عنف الدولة والحرب الفعلية. فالعنف البدوي لم يشهد مثل هذه السرعة الآلية، والإرادة القاطعة والتنظيم المحكم. ولم يبلغ هذا الحد من الشمول.

إن عنصر الدولة عامل مهم لفهم الظاهرة الجديدة، ولكن أيضاً هناك اللجوء إلى الايديولوجيا الدينية المصحوبة برؤية واضحة لمستقبل يجب الدفاع عنه حتى لو تطلّب الأمر المضي في إحكام السيطرة بالقوة. ونتج عن ظهور هذا النمط من العنف المنظم حالة دهشة واستغراب لدى العرب عموماً وقريش خصوصاً، ترتت عليها الشعور بالقوة النبوية التي لا تُقهر، وهو شعور سيتسع ويشتد بين الحديبية وفتح مكة. ففي المدينة ذاتها تحللت الشرعية القبلية لصالح سلطة كارزمية وشخصية، هي سلطة النبي.

والمدهش أكثر أن هذه النتائج لم تتحقق بفضل انتصار واضح على الخصم الرئيسي قريش، ولكن عبر صمود مظفر خلف وراءه صورة عن فعل مدعوم متجه نحو هدف، وتنظيم، وعقلانية، وتناسق. صورة ستتشر وترسخ في اللاشعور الجماعي للعرب.

ومع اقتحام مرحلة الحديبية اتضح أن الهدف الحقيقي لما سبق هو توحيد

العرب أولاً، ثم دفعهم فيما بعد نحو غزو الشمال. ولتحقيق ذلك وجب، بشكل أو بآخر، افتكاك مكة. وهنا يجب أن نتساءل عن سر التحول الذي جعل الرسول، بعد عامٍ من حصار قريش للمدينة، ينوي جدّاً أداء العمرة مع جماعته؟.

وبالرغم من أن العديد من المعطيات تنقصنا. إلا أننا نلاحظ بأن قيادات قريش وبالأخص أبو سفيان لم تقدم على استغلال الوضع الذي انقلب لصالحهم سواء أثناء حصار الخندق أو حتى في معركة أحد، كأنهم أرادوا توفير الفرصة لهذا النبي القرشي لكي يتمالك نفسه ويسترجع قوته. ونلاحظ في السياق ذاته أنه طيلة السنتين الفاصلتين بين معاهدة الحديبية (٦ هـ/٦٢٧ م) وبين الدخول إلى مكة (٨ هـ/٦٢٩ م) أسلم العديد من القرشيين والتحقوا بالنبي. وكان من بينهم شخصيتان من الدرجة الأولى، وهما خالد بن الوليد، المنتصر في أحد، وعمرو بن العاص مفاوض النجاشي. ولا شك، أنه بالوصول إلى هذه المرحلة المفصلية، أخذ كلا الطرفين، يراجع مواقعه الأمامية من أجل تحقيق مصالح عميقة تعطي لقريش مكانةً مهيمنةً في المنظومة النبوية، تجعل منها بعد حصول انقلابٍ مذهلٍ في الآفاق، المدافع الرئيسي عن الدولة الإسلامية. ويمكن اعتبار قبول الرسول بأداء العمرة في ظل هيمنة قريش على الكعبة وعلى مكة، مؤشراً على هذا التحول من قبل النبي. وقد أخذ معه سبعين أضحية، مما سيكون له أثرٌ على أحباش كنانة الذين سيشهدهم المشهد ويحيدهم، وهم الذين حافظوا على دورهم القديم كحراسٍ للكعبة، وسيرون في ذلك مظهر تقوى وتعلقاً بالحرَم. لقد لجأ الرسول إلى صيغة توفيقية، وانتظر إلى ما قبل موته بقليل ليضع حداً للوثنية ويدمج الحج بشكل نهائي وكلي في إطار المنظومة الإسلامية. ولم يصبح ذلك ممكناً لولا الجهد الذي بُذل من أجل إبراز القوة النبوية كسلطة رئيسية في الحجاز، تطمح إلى نشر نفوذها على كامل تراب الجزيرة العربية.

قطعاً، لم يتطور موقف كل القرشيين من النبي. لهذا رفضوا دخوله مكة، حتى بشكل سلمي. وفي المقابل دارت مفاوضات آلت إلى هدنةٍ تدوم عشر سنوات. لقد تصرف الرسول كدبلوماسي ورجل دولة، وأدرك أن المصلحة

تقتضي مجاملة قريش في انتظار ظروفٍ أفضل تمكّنه من تدعيم قوته، وذلك على الرغم من معارضة مستشاريه وكبار أصحابه. مع الإشارة إلى أنّ المفاوضات الخصم، وهو ثقيفي، انبهر من المظهر الملكي للرسول، وشدة انضباط مرافقيه، وسلطته اللامحدودة عليهم. لقد شبهه بالملك كما سبق أن فعل يهود خيبر عندما اعتبروه ملك الحجاز. ولعل النواة الصلبة من المهاجرين والأنصار هم وحدهم الذين كانوا يرون فيه قبل كل شيء رسول الله ومبعوثه، أما الآخرون من عرب قرشين ويهود، فهم يتعاملون معه كقوة وسلطة جديدة تنتصب في الحجاز.

جاءت حلقة أفتكاك خيبر لتبرز بنية الدولة، وتمكّنها من قواعد فلاحية مستقرة، تجاوزت بها المفهوم العادي للغنائم والفيء. قام جيش الرسول بنصب الخيام أمام خيبر، ووضع القوات بشكل أحكم الحصار حتى استسلم اليهود. وقام النبي بتأميم الأراضي بعد أن احتفظ بالخمس من الغنائم ووزع البقية على أصحابه من أهل المدينة وكذلك بعض عرب القبائل الذين شاركوا في الحصار.

اقترح اليهود أن يواصلوا خدمة الأرض التي لم تعد ملكاً لهم، وذلك بعقود مزارعة قابلة للإلغاء. وهي صيغة استمر العمل بها إلى أن ألغيت في عهد عمر. وبفضل الغنائم وامتلاك الأرض قويت الشرعية وتعززت. وقد سبق أن قلنا بأن هذا النظام انخرط في جدلية قوامها دفع الأعداء لمواجهة حتى يتمكن من تجريدهم من ممتلكاتهم، ثم يستخدم ما يجنيه من الفيء في تغذية الولاء له. وهي جدلية الدولة المحاربة المنظمة نفسها، لكنها تتميز هنا بالاستناد إلى الدين لتسوين إجراءاتها.

ستلعب هذه القوة الاقتصادية المدعومة دوراً استقطابياً للبدو مثل قبيلة أسلم المهددة بالمجاعة. وعملياً أسلمت كل من خزاعة وغفار، بينما تمسك الأحابيش بحيادهم، وتعهدوا بعدم محاربة النبي. وشيئاً فشيئاً انتفخ الجيش بالعناصر البدوية، حتى بلغ في فتح مكة (٨ هـ - ٦٢٩ م) عشرة آلاف رجل، نتيجة دخول البدو بكثافة في الديانة الجديدة وانخراطهم في المنظومة النبوية.

يوجد، إلى جانب النواة المركزية للمهاجرين والأنصار، قبائل برُمُتها أو أجزاء منها شكّلت الدائرة الثانية من المخلصين كمزينة، وجهينة، وسُليم،

وغفار، وخزاعة. وعندما فُتحت مكة التحقت كنانة وقريش وأستسلمت الطائف وثقيف، وكَوّن هؤلاء جميعاً النواة المستمرة والوفية للجيش الإسلامي، والتي تعلقت بالنظام الجديد وصمدت أمام ردة القبائل. وسيسمى هذا الفريق الواسع، عندما تقام مستقبلاً المدن والمعسكرات في العراق، بأهل العالية أو سكان المدينة. وسنجد العديد منهم قد هاجروا إلى المدينة وسموا بالمهاجرين قياساً على وفاء جماعة الصف الأول. وهي إما القبائل المتاخمة للمدينة والحليفة سابقاً للأوس والخزرج، أو تلك القبائل المجاورة لمكة وحليفة قريش. وقد قام النبي تدريجياً بإدماجهم في دائرة أتباعه، بصفته قائد المجموعة اليرثية ووريث سلطة قريش؛ دون أن يعني ذلك المساس بمقام المهاجرين والأنصار الذين بقوا النواة الأولى والأساسية.

لقد بدا الرسول، وهو يحاصر مكة ويلغي معاهدة الحديبية بعد سنتين من إمضائها، في هيئة القائد العسكري الغازي الذي لم تشهد الجزيرة العربية مثيلاً له. وكان جيشه يشمل، إلى جانب سكان المدينة والقبائل الموالية والمجاورة لها، عناصر بدوية أخرى من تميم وقيس وأسد. وعندما نظرت قريش حولها وشاهدت عشرة آلاف موقد نارٍ يشتعل سيطر عليها انطباع وحيد جاء على لسان أبي سفيان حين خاطب عم الرسول العباس قائلاً: «لقد صار مُلك ابن أخيك عظيماً!» كان الجيش منظمًا تنظيمًا دقيقًا وموزعًا على ميمنة وميسرة وقلب. وهكذا استسلمت مكة بدون قتال، ودخلت الإسلام بعد واحدٍ وعشرين عاماً من البعثة. ويعتبر ذلك حدثاً هاماً جعل من الرسول سيد الكعبة والمتحكّم الأوحد في الحج والتجارة المكية والوريث بشكل عام للسلطة القرشية.

إن النظام الذي أقامه النبي يتمحور حول جماعة المهاجرين والأنصار، ويستند إلى المرجعية الدينية بكل قداساتها وشعائرها ومحرماتها وتشريعها، ويكتسح تدريجياً عالم بدو الحجاز. وبدخول قريش الإسلام سيطر الرسول على المركز الأكثر أهمية لكل الجزيرة العربية. وبعد انكسار شوكة هوازن أمام جيشٍ يعدّ عشرين ألف رجل، وُزّعت غنائم ضخمة وفق حسابات سياسية قصد دعم الشرعية الجديدة للقيادات القرشية، مما أثار حفيظة الأنصار الذين يشكلون

القاعدة الوفية للنظام، والذين وجدوا أنفسهم في درجة ثانية.

أما القرشيون - فهم بالرغم من دخولهم الحديث في الإسلام - تهيأوا للقيام بالدور الرئيسي في ظل الدولة الجديدة، بحجة أنهم ينتمون لقبيلة الرسول، وأن صلات الدم تقدّم على الوفاء الأيديولوجي. وبهذا يبدأ النظام الجديد يتعرض لصراعات تحتية بين مختلف الشرعيات وبين العديد من الولاءات المتفاوتة: ارتباطات الدم مقابل الأسبقية في الوقوف إلى جانب الرسول، وسكان المدن مقابل رجال القبائل. وسنجد بعد ذلك أن مستقبل الإسلام سيتم فصل ويتحدد في ضوء مثل هذه الصراعات بين قيم فاعلة ذات جذور جاهلية، وبين الإسلام كقوة جديدة تستبطن حركية نضالية. وبدأ الرسول يخطط لعودة مكثفة إلى اعتبارات الموطن وعلاقات الدم، لكنه في المقابل وفر بذلك الشروط السياسية لتحقيق نجاح دولي لمهمته.

تشهد الستتان الفاصلتان، بين استسلام مكة ووفاة النبي، توسع السلطة الإسلامية لتغطي كامل الجزيرة العربية، وعودة نسبية، إلى الصلافة الدينية بعد أسلمة الحج وتثبيت وجوب غزو الشمال، كما قامت وفود كل القبائل - وفق ما جرت عليه العادة - بزيارة المدينة لتقديم شواهد الولاء والإخلاص. لا يعني ذلك أن الجميع أعلنوا دخولهم في الإسلام، وإنما هو تعبير عن الخضوع السياسي الذي يعتبر في حد ذاته معجزة ويبقى بدون تفسير. إذ كيف نعلل سكوت قبائل محاربة ومعتزة بنفسها، لم يسبق لها أن خضعت لأي سلطة بشكل كامل، وتغير مسلكها بشكل فجئي والتنازل عن سيادتها بدون قتال؟!

ليس أمامنا سوى الاعتقاد بوجود احتياج فعلي للوحدة أو التوحيد، وأن السلطة الجديدة أيقظت هذا الأمل، وأن تفويضها إلى حكم الله بصفته الحاكم الوحيد قد يسّر عملية الخضوع والولاء، هذا بالإضافة إلى ما يتمتع به النظام من قدرة كافية على الردع. ويجب ألا ننسى أن قبائل نجد والشرق واليمن لم تكن مستقلة بالكامل، وسبق أن كانت تابعة للخمين وأمراء غسان وأقيال اليمن. وهو ما ينطبق على حالة بكر وقيم ومذحج وهمدان. وعملياً، يُعتبر القول بالاستقلال التام للقبائل مجرد طوبى، باستثناء بعض الحالات مثل هوازن

التي لم تنكسر مقاومتها إلا على يد النبي في حنين، وقبائل اليمامة التي تمدّنت حول حرم وأنجبت هي أيضاً نبيها الخاص. كما أن قبائل الجزيرة تبيّأت من خلال تجربتها وأستعدّت لمنح ولائها لسلطة قوية. وقد توافرت كل الشروط في السلطة النبوية التي كانت ثمرة مجهود عربي، وأستندت إلى إشعاع الحرم، وصاغت الوجود الإنساني ونظمته دون إسقاط أهمية رابطة الدم، وتمكنت من فتح آفاق الغزو. وهو ما جعل القبائل في الأثناء ترضى الخضوع لنظام دفع الزكاة وتقبل بوجود العمال المحليين للرسول.

برز توجه النبي إلى العالم الخارجي منذ وقت مبكر. وتجسّد ذلك في السّريّة المكونة من ثلاثة آلاف رجل والتي وجهها إلى مؤتة عام ٨ من الهجرة (٦٢٩ م) وانتهت بفشل تام. ثم جهز أضخم جيش له سنة ١٠ هـ (٦٣١ م)، إذ وجّه ثلاثين ألف مقاتل إلى تبوك، حيث تمّ إخضاع مناطق عديدة. وأتّضحت بشكل دقيق نوايا الرسول في السيطرة على فضاءات ومدن الشمال، وهي مدن أهتمّ بها القرآن كثيراً في معرض حديثه عن المواقع العربية التي دمّرها الغضب الإلهي في العصور الغابرة. إذ نجد القرآن قد أحيّا في قصصه تقاليد الشمال العربية، واعتمدها كقاعدة للذكرى والتأمل العربيين. وفي نهاية حياته تبنّى النبي بوضوح مسألة الغزو الخارجي كضرورة حيوية ناجمة عن توقف التجارة. وجاء القرآن ليذكر بالوعود الإلهية باعتبارها أفضل من التجارة، ويؤكد على ضرورة طاعة الرب حتى لو أدى ذلك إلى وقف هذه التجارة بحجة منع المشركين من الاقتراب من الحج. ويمثل هذا المنع أصبحت التجارة القرشية مهددة بالاختناق، فاقترح القرآن في هذا السياق، بديلاً من خلال الوعود الإلهية، وسائل جديدة للعيش، وفتح آفاق مغيرة. ولم يكن البديل سوى غزو الشمال المعرب والذي يبدو كأنه امتداد طبيعي للجزيرة العربية. وبذلك تكون السلطة النبوية قد استبطنت منذ تشكيلها الأول فكرة غزو الخارج. فنظراً للفوضى التي سادت قطاع التجارة، واستحالة توافر غنائم جديدة داخل فضاء الجزيرة العربية، وضرورة استناد النظام إلى توسع مالي ملموس، كل ذلك جعل من الدولة الإسلامية دولة موجهة نحو الغزو. وبما أنها ولدت منذ اللحظة الأولى

كدولة محاربة، فإن مسألة الغزو لم تكن مجرد حادث في مسارها، بل جزء من جوهرها وطبيعتها. وحتى يمكن جمع القبائل، لم تكن أمام النبي غير صيغة واحدة تتمثل في دعوتهم لهدف معهود لديهم وهو البحث المتجدد والمتواصل عن الغنائم. وبالرجوع إلى مسار الدولة النبوية نجدها - انطلاقاً من بدر حتى حنين مروراً بالاستحواذ المتتالي على واحات اليهود ووصولاً إلى تبوك - ملتزمة بالهدف نفسه، ألا وهو غرس عادات الرُّحْل في الأوساط الحضرية بإمكانيات أوفر وتوجهات منتظمة، وإخضاع هذه المسيرة الحربية المستمرة لمقتضيات الوحي.

الانتصار على الانشقاق

ترك الرسول بعد موته ديناً مكتملاً ودولةً تسود كامل الجزيرة العربية، وبين الدين والدولة وحدة لا انفصام لها. ويخضع الجميع، أفراداً وجماعات، للدولة الجديدة من خلال إشهار الإسلام والممارسة، وبتحديد أكثر إقامة الصلاة وأداء الزكاة. وحتى مسلمو المرحلة الأولى الذين تأثروا بالخطاب التبشيري الموجه للأفراد، اندمجوا هم أيضاً في منظومة الدولة. إذ تتمثل وظيفة النبوة في الجمع بين الدنيوي والمقدس، عالم الغيب وعالم الشهادة. وتتأسس سلطتها على الخطاب الإلهي والتوجيه الفعلي للجماعة. ولولا النبوة لما توحد العرب وانتظموا وبلغوا درجةً عليا من النهوض الأخلاقي، وبالتالي لما دخلوا التاريخ أصلاً. فكان النبوة قدمت نفسها لتمنح العرب هوية ووحدة وقدرًا.

عملياً كان المهاجرون والأنصار وحدهم الذين عاشوا حياةً إسلاميةً أصيلة. فقد واكبوا مختلف مراحل المغامرة البطولية للنبي، وعاشوا من أجل الإسلام واندمجوا ضمن نسقه الروحي، والتصقوا به كلياً حتى أصبح المعبر الوحيد عنهم. ثم تدافعت موجات جديدة من المسلمين لتلتفت وتلتحم حول النواة الأولى، من قرشيين أسلموا بعد الفتح، وعناصر من قبائل مجاورة (كجهينة ومزينة وخزاعة) سواء هاجروا إلى المدينة وسمّوا أيضاً بالمهاجرين، أو بقوا في إطارهم القبلي. وتشكلت بعد ذلك حلقة ثالثة تتألف من سكان مكة والطائف وثقيف. وحتى لا نطيل نقول إن النظام النبوي مد جذوره في مدن الحجاز،

وبشكل أعمّ في مناطقها البدوية. من بعد ذلك تأتي بقية العرب الذين خضعوا وأعلنوا إسلامهم من اليمن إلى البحرين، وهو عالم حضري وقبلي ممتد. وبهذا يكون الرسول قد بدأ في وضع الهياكل العملية للإسلام وللدولة التي ستبقى مهددة إلى حدّ كبير.

عندما توفي الرسول وجد المسلمون أنفسهم أمام مشكل وحيد وحقيقي. ويتمثل الأمر في كيفية الحفاظ على مشروعه المجسد في دولة ودين، وبالتالي ضمان خلافته وإبقاء القبائل التي أشهرت إسلامها على وفائها وولائها. كاد كل شيء أن ينهار، ثم تغير الوضع بسرعة ليتدعّم النظام ويستقر. انتُخب أبو بكر في وقتٍ قصير جداً ليصبح «خليفة رسول الله»، وأخذت ردة القبائل في مدة لم تتجاوز السنة مما خلّف شعوراً بصلاية المشروع الرسالي، سواء للقيمة الجوهرية للخطاب وللفاعل النبوي، وأيضاً لما تتمتع به النواة المركزية للأنصار والمهاجرين من وفاءٍ وروحٍ نضالية، محدّدة بدائرة المدن الحجازية.

كادت النواة الصلبة أن تنقسم منذ البداية. فعندما تم الإعلان عن وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، سارع الأنصار بعد ارتباك قصير إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة لانتخاب واحد منهم هو سعد بن عبادَة أحد قادة قبيلة الخزرج. ويبدو أنهم قصدوا خلافة رسول الله. وتدل فكرة الانتخاب على وجود نوع من الديمقراطية الجماعية المختصرة في النخبة، وتكشف أيضاً أن وظيفة الرسول قد فهمت كقيادة تستوجب الخلافة في حالة حصول الشغور. لكن لا يمكن أن نقطع بالقول لأول وهلة إن كان الأنصار قد قصدوا انتخاب أمير لهم أم أمير لكل الجماعة الإسلامية، وهل تعتبر مبادرتهم ردّ فعلٍ قبلياً، أم هي محاولة قصد منها إنقاذ الأمة والدولة؟

تمت الدعوة لعقد الاجتماع بسرعة كبيرة ودون إعلام المهاجرين، كأن الأنصار أرادوا أن يسبقوهم في اتخاذ القرار، إن لم نقل أنهم أرادوا ترتيب الأمر فيما بينهم. ولا يستبعد أنهم تحركوا وفق اعتبارات قبلية أو بشكلٍ خصوصي على طريقة أهل المدن. فهم كانوا الأغلبية في مدينتهم، ويتصرفون باعتبارهم أسياداً فيها، وبالتالي يستعيدون سيادتهم التي تنازلوا عنها للرسول أيام حياته. ويعتبر

ذلك في اعتقادي تصرفاً انفصالياً لم يراع كل مكونات الجماعة، وخضع لاعتبارات قبلية تخص فقط الأوس والخزرج الذين يبحثون عن قائد لهم. ويستبعد أن طموحهم ذهب إلى التحكم في الجماعة ومن ورائها بكامل الجزيرة العربية، وفرض أنفسهم كورثاء وحيدين للرسول. إنهم أرادوا الحد من هيمنة قريش التي ظهرت وتنامت منذ فتح مكة، ولم يقبلها الأنصار بارتياح. وقد سبق أن اعترضوا علناً على الاستحواذ على السلطة من قبل أشرف قريش الذين تأخروا في إسلامهم، ولم يهضموا جيداً مبادئ الدين الجديد، في الوقت الذي حاربوا هم فيه مع الرسول منذ بدر. لهذا، عندما أسرع كل من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة - ممثلو المهاجرين - للالتحاق بالاجتماع، وجدوا أنفسهم يواجهون خصوصية انفصالية وفق التقاليد القبلية، ولا علاقة لها بالرسالة التوحيدية للنبي، ولا بروح الإسلام الذي جاء كتجاوز لكل الاعتبارات الجاهلية. والدليل على ذلك أن ثلاثي المهاجرين عندما أصرّوا على موقفهم، اقترح الأنصار أن «يكون منكم أمير ومنا أمير». فهم قصدوا منذ البداية استرجاع قيادة المدينة التي هي مدينتهم، ثم تراجعوا قليلاً واقترحوا اقتسام السلطة على الطريقة القبلية.

وأمام هذا الموقف، وحتى يغلبوا وحدة الجماعة التي أقامها وأسسها النبي، لجأ ممثلو المهاجرين إلى أسبقيتهم في الدفاع عن الإسلام. واعتبروا أن المحدد في الأولوية هو أسبقية الانخراط في الحياة الإسلامية والآلام والتضحيات المقدمة في سبيل الإيمان. فالمهاجرون هم الذين واکبوا كل مراحل مسيرة الإسلام منذ بعثة النبي. اعترفوا بأهمية نضالات الأنصار إلا أنهم يعتبرونهم يأتون في الدرجة الثانية انطلاقاً من مقياس الأسبقية في الصحبة. وبالاعتماد على رؤية إسلامية صرفة يعتبرون أولى من غيرهم بالوراثة. وكذلك الشأن من زاوية عربية صرفة، إذ ينتسبون إلى قريش قبيلة الرسول. وقد أكدوا أن العرب لن يخضعوا لأي أحد لا ينتسب إلى قبيلة النبي. وبناءً عليه فلا مقاسمة في السلطة، ولا بد من الحفاظ على وحدة الجماعة، ولا مناص من سيادة قريش ممثلة في المهاجرين الأوائل، وبذلك كله تتم مواصلة العمل بالرسالة النبوية.

أخيراً، تمكن أبو بكر بمعاوضة قوية من عمر أن يفرض آراءه. وبعد تردد محدود لم يتأخر الأنصار في التابع ومبايعة أبي بكر والوقوف إلى جانب المهاجرين. وهكذا حصل منعرَجٌ جدُّ مدَّهش ستكون له مضاعفاتٌ ثَقِيلَةٌ على المستقبل. إذ كيف نفسّر هذا الانقلاب في الموقف بعد نقاش حاد وسريع ومفحم تألّق خلاله عمر بن الخطاب وأسفر في النهاية عن تركيز خليفة؟

لم يكن الأنصار يشكلون جبهة موحدة. فهنا من جهة الأوس، ومن الجهة الأخرى الخزرج، تفصلهما صراعات الماضي ذات الصبغة القبلية التي تقدمها الإسلام ووحد بينهما من أجل قضية مشتركة. وعندما تجمعوا في السقيفة كان إجماعهم هشاً ولم يصمد طويلاً أمام مقاومة المهاجرين. ويعود سبب التصدع إلى أن الأوس لا يتمنون أن يحكمهم واحدٌ من الخزرج، لهذا سارعوا إلى مبايعة أبي بكر، وهم مدفوعون بآليات المرحلة الجاهلية. لكن في المقابل، يشعر الأنصار في أعماقهم أن فكرة وحدة الجماعة الإسلامية قد اخترقتهم بعد نضال وجهاد في سبيل الله وبقيادة نبيه، وهو ما يشكل دليلاً على انتصار باهر للمثل الإسلامية. وبذلك أمكن أن يقبلوا تقدم المهاجرين عليهم بحكم أسبقيتهم النضالية. قدم الأنصار جهدهم وعددهم وطاعتهم، إلا أن المهاجرين شاركوا في كل المعارك، وسبقوهم في الصمود طيلة المرحلة المكية الاستشهادية. لهذا تفاعل الأنصار مع حجج أبي بكر. وكعربٍ يقبلون منطق انفراد قبيلة أو كتلة أو عائلة بوراثة النفوذ. وبما أن المهاجرين يتمتعون بميزة الجمع بين الإسلامية والعروبة فهم أحق بالقيادة. لهذا لم يطل تبادل الحجج بين الطرفين، وبخاصة أن شوارع المدينة كانت تعج بأفراد قبيلة أسلم حسب ما يذكره الرواة. وكان هناك ضغط عسكري مباشر من قبل خزاعة الرابضة قريباً من مكة والتي كانت تربطها بالرسول علاقات شخصية، ثم تحولت تلك العلاقات لتتوثق مع وراثه الطبيعيين وهم مهاجرو قريش. وهذا يعني أن ميزان القوى بفضل تحالف البدو هو لصالح المهاجرين. وفي الختام تجب الإشارة إلى قوة شخصية عمر الذي لعب دوراً حاسماً في هذه القضية. ولا غرابة في ذلك فهو أكثر المستشارين قبولاً واستماعاً من قبل النبي، وأحد وجوه الصدارة لدى المهاجرين. وإذا كان

صحيحاً أن أبا بكر فرض نفسه في اجتماع السقيفة، فإن عمر هو الذي بادر ليقع الاعتراف به ومبايعته، ودفع الأنصار إلى أتباعه بفضل عنفه وشدة ثقته بنفسه. كما لا يخفى أن الثلاثي: أبا بكر وعمر وأبا عبيدة يشكّلون فريقاً متجانساً، ربما منذ العهد المكي. فثلاثتهم ينتمون إلى البطولة القرشية الصغيرة مما ساعد على حصول تقارب بينهم. وتكامل شخصيتا عمر وأبي بكر بشكلٍ مدهشٍ لتجعل منها ثنائياً غير قابلٍ للفصل والتجزئة. فكلاهما تربطه بالأنصار تحالفات. ولعل انحدارهما من صلب كتل قرشية صغيرة كان من العوامل المساعدة التي جعلت الأنصار يطمثون إليهم أكثر من غيرهم، لأنها عندما سيحكمان لن يستندا كلياً إلى الأجنحة القوية في قريش، مما سيجعل سياستها إسلامية قائمة على علوية الإيمان أكثر من الاعتماد على رابطة الدم. وهذا يعني أن أسرة النبي، سواء بمفهومها الضيق ممثلة في بني هاشم، أو في مفهومها الأوسع (عبد مناف)، قد تم إبعادها من الخلافة، وفي ذلك مفارقة، لأنه في الوقت الذي ترجع فيه قريش كقبيلة للحكم يقع استبعادها في مستوى العائلة. وليس ذلك بدعاً لأن العرب يعتبرون وظيفة سيد القبيلة كامنة في عائلته بمفهومها الواسع، أي في البيت. لكن، وبما أن الأمر يتعلق هذه المرة بتسيير شؤون كامل العرب، فقد طرحت مشكلة. فمن الحشيات ذات الدلالة عقد الاجتماع دون دعوة وإشعار أفراد عائلة النبي. وهو ما يفسر قيام بعض الاضطرابات على إثر انتخاب أبو بكر. إذ تفيد المصادر القريبة من الشيعة أن علياً تأخر كثيراً في أداء البيعة. كما أن الهاشميين وكذلك الأمويين، باعتبارهم يشكلون معاً الكتلة العريضة لعبد مناف، أبدوا الكثير من التحفظ تجاه أبي بكر، وحرّضوا عثمان وعلياً بشكلٍ أخصّ على التعبير عن ذلك. واتجه قوم من بينهم العباس وابنه الأكبر الفضل، وأبوسفيان وخالد بن سعيد بن العاص إلى عليٍّ ليبايعوه باعتباره أحق بالخلافة. إلا أن أزمة حصلت فامتصّت الاحتجاج وأحدثت إجماعاً حول أبي بكر. وفعلاً كان الشيخان أبا بكر وخليفته عمر استثناءً نموذجياً من حيث المفهوم الإسلامي العميق لصحبة النبي والتعالي عن كل الاعتبارات الكتلوية والعائلية، وبالتالي مواصلة التحرك داخل الإطار النبوي. لأنه بذاهبهما استقرت السلطة نهائياً في أيدي الكتلة العريضة لبني

عبد مناف بالتناوب بين الأمويين والهاشميين. وهكذا، يتبين أن القضايا الكبرى التي ستستغل الجماعة الإسلامية وستمزقها تمزيقاً قد تبلورت منذ البداية وهي: من هو الأحقّ بخلافة النبي؟ وما هي مقاييس ذلك؟ وهل يصح أن تعطى الأولوية لآل البيت؟ وإذا جاز ذلك من هم آل البيت، بنو أمية أم بنو هاشم؟

يُعتبر مصطلح خليفة رسول الله في حد ذاته برنامجاً لتحقيق استمرارية السلطة النبوية، ليس في ما يتعلق بالبعد الغيبي المرتبط بالوحي، ولكن في جانبها التبليغي المتعلق أساساً بالسلطة الزمنية. فالخليفة هو قائد الجماعة الإسلامية، ووارث القيادة عن النبي. لكن لا يعني ذلك أنه في إمكانه المساس بأصول الإيمان أو الشعائر التي أقرها الوحي. لا تعتبر سلطته دينية إلا في مستوى التأكيد على الدين بحكم كونه أساس الذات الجماعية. لأن كل ما يتعلق بالسياسة نجده يحمل تلوينات دينية خفيفة، كما تستمد ممارسات الأفراد مشروعيتها من الأرضية الدينية. فالسلطة هي في جوهرها لله الذي فوضها لنبيه، ويمارسها الحاكم المسلم باعتباره خليفة الرسول. أي أن السلطة في الإسلام ذات أساس قدسي.

أما من حيث الممارسة، فإن سلطته سياسية، ومطلقة، لا يحدها سوى النص القرآني وسنة النبي، والنصائح التي تقدمها نخبة المسلمين من المهاجرين والأنصار وإن كان أبو بكر قد شرك عمر في السلطة حتى كاد أن يتقاسمها معه، لكنه عملياً اتخذ بمفرده القرارات الأكثر أهمية والتي توقف على أساسها مستقبل الجماعة.

ارتبطت خلافة أبي بكر بتحقيق مهمتين رئيسيتين. تمثلت الأولى في القضاء على ردة القبائل، ثم العمل ثانياً على فرض الإسلام بالقوة وبشكل نهائي على كامل تراب الجزيرة العربية، والتحول بعد ذلك إلى البدء بعمليات الفتح الخارجي.

انتشرت ظاهرة الردّة بعد وفاة النبي حتى كادت تشمل جميع القبائل. كانت عبارة عن نقض وتقويض لاستمرارية الدولة، حيث تبين أن المرتدين

اعتبروا أن إسلامهم السابق لا يتجاوز مجرد علاقة شخصية ربطتهم بالرسول، علاقة قابلة للنقض وتصبح باطلة بعد موته. وبما أنه لا فصل بين الدين والدولة، يعتبر الخروج على الدولة شكلاً من أشكال الردة في الإسلام. صحيح أن الردة اتخذت بُعداً مالياً، حيث رفضت القبائل أداء الزكاة، وأبدت استعدادها لمواصلة إقامة الصلاة. لم يكن الجانب التعبدي الديني هو الدافع الرئيسي لمقاومة المرتدين، بقدر ما كان تمردهم على الدولة عندما رفضوا الوفاء بأحد أدائها. لهذا لم يقبل أبو بكر أي مساومة، مصرّاً على أن الدولة والدين كلٌّ لا يقبل التجزئة، وأن الأشياء يجب أن تبقى كما تركها الرسول دون تحوير أو تبديل. ولم يتردد في إعلان الحرب على غالبية سكان الجزيرة العربية انطلاقاً من الحجاز والمدينة ومكة والطائف، وبمساعدة بدو ضواحي المدينة (جُهينة، مزينة، غفار) وربما أيضاً قبيلة خزاعة. وبتعبير آخر، كانت دار الإسلام عبارة عن جزيرة عائمة في خضمّ محيط من الجموع المرتدة. واتخاذ قرار لمواجهة كل هؤلاء يقتضي وفاءً مطلقاً للإرث النبوي، وثقةً كاملةً في إمكانيات الإسلام وإيماناً قاطعاً. لقد بدا الإسلام مهدداً بالانهيار، فأنقذته المجموعة القليلة من الصحابة وعلى رأسها أبو بكر، وحفظت تطلعاته المستقبلية. وبالرغم من صعوبة الرهان وخطورة الوضع، أظهر هذا الدين قدرةً فريدةً على المقاومة بفضل تضحيات المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من بدو الحجاز، وبفضل بقاء القوة العسكرية التي شكلها النبي سليمة بعد أن تم اختبارها في معركتي حنين وتبوك. وهي بالرغم من صغر حجمها، إلا أنها تتميز بانضباطها وبقدراتها القتالية، حيث يعتبر النبي في المجال العسكري مجدداً، إذ هو الذي أدخل تنظيم الصفوف في المعارك على شاكلة الاصطفاف أثناء إقامة الصلاة، وقسم الجيش إلى وسط وأجنحة. ونفخ في المقاتلين روحاً جهاديةً تتميز بالحسم والمقاومة. وبعد أن كانت الحرب في الجاهلية تقوم على أساس الكر والفر، منع الإسلام كل نزوع إلى التقهقر وإعطاء الظهر، معتبراً ذلك من الكبائر.

وفي المقابل تقدم العرب المرتدون متفرقين، مقسمين إلى قبائل منفردة حسب الجهات أو حتى حسب الأحلاف. ولم يكتسبوا فنيات القتال المعتمد على

المقاومة والتضحية. كما فشلت قيادات القبائل في التخفيف من جموح العوام إلى الانشقاق والاختلاف. وقد انتهجت جيوش المدينة تكتيكاً موفقاً، تمثل في إعادة دمج القبائل التي أعلنت إسلامها من جديد، لتسهم مباشرة في مقاومة بقية المرتدين.

لا يوجد اختلاف نوعي بين الردة والثورة، إذ المقصود واحد وهو التخلص من الخضوع لسلطة المدينة. وهكذا، اتضح بجلاء كبير الربط الوثيق بين الدين والسياسة، عندما تعددت مصادر ادعاء النبوة. فظهرت سجاح عند تميم، وظهر طليحة عند بني أسد، والأسود العنسي في اليمن، وذو التاج في عمان، وخاصة مسيلمة عند بني حنيفة باليامة. فجميع هؤلاء الأنبياء المزيفين تقمصوا شخصيات كهنوتية، وادعوا التعامل مع مرسلين ملائكيين لهم خاصة، وآخثاروا كلاماً مقفياً محاكاةً منهم للقرآن، ومارسوا في الآن نفسه سلطة روحية وزمنية، ليصبحوا قيادات، ولكن في مظهر مضحك، خاصة ما حصل بين سجاح ومسيلمة.

إنّ تعدد ظهور المتنبئين في مناطق عدة يطرح إشكالاً: هل هو مجرد تقليد للنبي محمد أم أنه أحد تعبيرات المجتمع والحضارة؟ وبصيغة أخرى، هل كان طليحة أو مسيلمة مجرد رد فعل مصطنع على ظهور محمد، وتكراراً ميكانيكياً لأسلوبه في ممارسة السلطة العقائدية، أم هما إفراز لمجتمع قبلي لا يقدر على بلوغ مرحلة السلطة المنظمة إلا إذا اتخذ النبوة مدخلاً ووسيلةً لذلك؟ يبدو أن الظاهرة تضمنت الأمرين معاً. إذ لا تستطيع الارستقراطية العربية أن تقيم دولة متماسكة. فالظاهرة الدينية هي القادرة وحدها على صنع الدولة وتوحيد الناس، وكسب طاعتهم، وسن التشريعات، وتنظيم الحروب وإدارتها. كما توجد صلة وثيقة بين النبوة والحرم وبين كل جهد يقصد به تهذبة الناس وتطويعهم وضبطهم. لهذا، يذكر الرواة أن مسيلمة «أقام حرماً ومنع اجتياحه والإغارة عليه»، وسنّ بعض التشريعات وأعتبر نفسه قائد حرب. وهو ما يدفعنا إلى التأكيد من جديد على أن الوسط القبلي، في ظل ظروف الجزيرة العربية آنذاك، لا يسمح بإقامة سلطة شاملة بعيداً عن ظاهرة النبوة.

ولم يكتب النجاح لمختلف النبوات التي تعقبت طريق النبوة، نظراً لهشاشتها، وعدم تجاوزها للمنطق القبلي، ولم تختبر في ضوء مسيرة طويلة وتجربة حقيقية ومعاشة. لهذا، تهاوت جميعها في مواجهة نبوة بنت قواعدها، وأسست أرضيتها الاجتماعية، واكتسبت تاريخاً نضالياً يستبطن شعوراً قوياً بالحق.

جهز أبو بكر، لمقاومة أهل الردة، إحدى عشرة حملة، لكل حملة قيادة، كان على رأس بعضها خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل. كما ضمت الجيوش مهاجرين وأنصاراً وبدو ضواحي المدينة وبعضاً من أهل القرى.

توجه خالد إلى طليحة الذي جمع حوله قبائل نجد، بدءاً من قبيلته، أسد طيء، وصولاً إلى غطفان. لكن، وبفضل تأثير عدي بن حاتم قبل بنو طيء التخلي عن ردتهم بدون قتال، وأنخرطوا في جيش خالد، الذي بدأ في عمليات مواجهة ضد بني أسد، وهوازن وغطفان، الذين اضطروا بعد هزيمتهم أن يعلنوا عودتهم إلى الإسلام. أما عكرمة فقد قصد مسيلمة وألتحق به خالد، نظراً لضخامة التحالف الذي شكّله بنو حنيفة والذي جمع حوالي أربعين ألف رجل. وكانت اليمامة تشبه الحجاز في غط حياتها وفي هياكلها الصلبة التي تجمع المدن بالواحات؛ وهو ما جعلها من أكثر مواطن الردة خطورة على دولة المدينة، وأكثرها كلفة وقد خلفت معركة عقرباء - التي انتصر فيها المسلمون - ستائة قتيل من بينهم مائتان وستون من المهاجرين والأنصار، وفي بعض الروايات ألف ومائتا قتيل مسلم وسبعة آلاف من بني حنيفة.

توجهت جيوش أبي بكر إلى كل مكان. هاجم العلاء بن الحضرمي بكر ابن وائل في البحرين. وأنهزمت قوات ذي التاج في عُمان أمام المسلمين الذين وجدوا الدعم من بني ناجية وعبد القيس. كما التحق بنو ناجية والأزد، وعبد القيس، وراسب وسعد من تميم بالمسلمين ليُلحقوا هزيمة نكراء بقبيلة بهراء. أما في اليمن، حيث ثار الأسود العنسي - منذ أيام النبي، على أحفاد الفرس (الأبناء) وطردهم وفرض قانونه بدعم من قبيلة مذحج القوية، فقد قُتل الأسود في اللحظة ذاتها التي شهدت وفاة النبي. ظهرت بعده ردة ثانية بزعامة قيس ابن مكشوح المرادي الذي استولى على صنعاء وأخضعها. تصدى له

عكرمة الذي وجد الدعم من الأنبياء والارستقراطية والمهرة وهزمه. وفي حضرموت قاتل المسلمون كندة بزعامة الأشعث بن قيس، وتغلبوا عليه واحتلوا حصن النجير.

وبفضل كل هذه المعارك عادت تلك القبائل إلى الإسلام، وقبلت دفع الزكاة، واعترفت بخضوعها لدولة المدينة. والذي لفت الانتباه بشكل يدعو إلى الدهشة، أن المسلمين على قتلهم ينتصرون دائماً وأن المرتدين يعجزون حتى عن تحقيق الوحدة فيما بينهم.

أسفرت المعارك عن غنائم ضخمة، وعرفت الكثير من السبي، وقتل كل من أسر وهو يحمل السلاح. كانت حرباً شعواء بدون رحمة. كما شكّلت فرصة لدولة المدينة لتقلّص من إمكانيات الانشقاق وتوحد العرب تحت رايتها. ولهذا الغرض عندما تولى عمر الخلافة أعلن أنه لا عبودية على عربي، وقام بتحرير الأسرى المستعبدين مقابل فدية.

وبانتهاء حروب الردة تكون دولة المدينة قد أنجزت مشروع النبي عندما أظهرت قدرتها على ردع أي تمرد بالقوة، وأحدثت تطابقاً كلياً بين السلطة والأرض. فهي تمكنت من استعادة السيطرة على كامل الجزيرة أو بعبارة أخرى قامت بغزوها. وبفضل حروب الردة أيضاً، تأكدت فكرة أن الجزيرة العربية لن يتعايش فيها دينان، حيث أصبح الإسلام ديناً قومياً مرتبطاً كلياً بالأرض والمكان. هكذا توحد العرب بالجزيرة في دولة ودين، وصاروا مستعدين للانطلاق إلى العالم.

